«٥»

أبو إسحق الهمداني

نسبه، نشأته - أعماله الاجتماعية والحربية - حروبه مع الصليحي - تاريخه من شعره - صلته بأئمة عمان - أصحاب النفوذ في عهده - حياته الخاصة - ما قلّ ودلّ

❖ نسبه، نشأته:

«الإمام العلامة الورع الباسل الشاري أبو إسحق إبراهيم بن قيس بن سليمان الهمداني الحضرمي الإباضي، كان والده ممن عليه المعول في حضرموت ونواحيها، مسموع الكلمة مطاع الأمر والنهي، عالماً ورعاً زاهداً متقشفاً مع الغنى الواسع، لا يستميله زخرف الدنيا وزهرتها، قاهر النفس موطناً لها على العبادة مع القيام بواجب الإصلاح، ذا هيبة في قومه وبسالة في مواطن الدفاع والذود عن الدين»[١].

وقد عني قيس بتربية ولده إبراهيم أحسن تربية، وعلمه كل ما يمكن الحصول عليه من علوم ذلك العصر وآدابه، وأمره بالدرس والتحصيل على كبار علماء عصره، حتى نبغ وتفوق وصار أعلى من أبيه شأناً وأعظم جاهاً، وأوسع اطلاعاً، وأثبت جأشاً، وأشد إقداماً، وشب إبراهيم سالكاً سيرة والده في الورع والزهد وحسن السيرة والاستقامة والرغبة في الإصلاح الديني والاجتماعي، وكان نبوغه المبكر وحسن استعداده ووفرة ذكائه

(١) الشيخ سليمان الباروني في تقديمه لديوان صاحب الترجمة.

ورجاحة عقله من بين الأسباب والعوامل التي هيأته للمهام التي اضطلع بها فيما بعد.

ولا يعرف بالضبط السنة التي ولد فيها، غير أنه في حكم المؤكد أنه عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، فقد ذكر الباروني «أن مبدأ ظهور أمره كان في حياة والده بصدر الخمسين الثانية من المائة الخامسة، أي مبدأ استقلاله بالأمر، وإلا فقد كان عاملاً للخليل والإمام راشد قبل ذلك».

❖ أعماله الاجتماعية والحربية:

لما كبر والده وأدركته الشيخوخة تصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقاومة المنكرات ومحاربتها حيث لا زاجر ولا رادع، فقام من ذلك بكل ما يملك من وسيلة وبما لديه من جهد، ولم يكد يمضي في غايته غير بعيد حتى عاد القرامطة يخربون ويدمّرون، يقطعون النخيل ويسلبون الأموال ويعيثون في البلاد فساداً فوجه عنايته - كما يقول الباروني - إلى طلب المعونة من أئمة عُمان الموافقين له في المذهب والعقيدة، فوالى لهم الرسائل والرسل، ثم اقتحم المفاوز وسار بنفسه إليهم فلم يجد لديهم عوناً، فعاد إلى حضرموت منكسر الخاطر يقوده زمام الأسف وتدفعه عوامل الحماسة والغضب، ثم لما نصب الخليل بن شاذان إماماً بعُمان وكان شهماً جليلاً ذا صولة متصفاً بالصلاح مشهوراً بالعدل كاتبه بعض إخوانه هناك وطلب حضوره إلى عُمان فأسرع الإجابة وحضر فلقي من الإمام وغيره من الإكرام والاحترام ما دعاه إلى إعادة طلبه القديم، فلم يكن من الإمام إلا أن لبَّى دعوته ومكّنه من المال والرجال، فسار إلى حضرموت واحتلها باسم الإمام في أربعة عشر يوماً، رغماً عما كانت عليه من المنعة في ذلك العهد»[1].

---

(١) مقدمة الشيخ سليمان الباروني.

وكان أبو إسحق قد قدَّم إلى الخليل بن شاذان قصيدة يصف له الحالة في حضرموت، منها:

يا خير خلّ خربت أوطاننا ... واستعبد السفهاء كل نبيل
يا خير خل لم نطق دفع الأذى ... عن أخذ مكنون وجِذّ نخيل
يا خير خل أصبحت أسواقُنا ... أسواق سحت واعتداء محول
يا خير خل قد غلبنا فانتَصِرْ ... وانظر لنا بالرأي عزم أصيل

ومن قصيدة أخرى يقول:

فجدت له بالعذر بسطاً وجادَ لي ... بما فيه نصر لا عدته المكارم
فها أنذا بالمال والبيض والقنا ... على حضرموت بالسلامة قادم
سلا تخبرا عني إذا صرت نحوها ... وناديت في الإخوان أين اللهامم

وقد استطاع أبو إسحق بهذه المعونة الحربية أن يفرق أعداءه حتى لم تَبق منهم سوى طوائف التجأت إلى القرى الواقعة بأطراف البلاد، وفي هذا يقول من قصيدة أرسلها إلى الخليل إمام عمان يخبره فيها بما تم له من نصر:

سل الوفد عني يا إمام ألم أكن ... تسربلت يوم الروع ثوب العزائم
وهل كان همي غير ما كنت ذاكراً ... وهل نمت عن طرف الجواد وصارمي
حرام حرام إن طعمت بمنزل ... إلى اليوم طعم النوم بين الكرائم
ولكنني لما نزلت بعقوتي ... نشرت لوائي في الكرام القماقم
وساروا بحمد الله حولي كأنهم ... بدور ولكن في الوغى كالضراغم
فما كان إلا جمعة بعد جمعة ... وأدّت إليّ العشر أهل الحضارم
سل الخطبا لَمّا دعوا لك جهرة ... على رغم أهل الجور بعد التصادم
وسل عرب البيداء هلا أذقتهم ... عشية خانوا العهد سُمّ الأراقم

وأما نواحي حضرموت فإنها بحول إلهي طوع أمري كخاتمي
سوى نفر كانوا عصاة فأصبحوا من الخوف في روس القرى كالحمائم
ولم يبق لي إلا الصليحي قائماً وها هو أيضاً سعده غير قائم
وقد نزعت عنه القبائل قصدنا لما نظرت من رغمها في الملاحم
ونحن إليه واردون بجيشنا فما هو أدهى من ملوك الديالم

وهو في هذه القصيدة لا يذكر القرامطة بهذا الاسم ولكنه يشير إلى مخالفيه من عرب البيداء والنفر العصاة من نواحي حضرموت، وربما كان هؤلاء قد تسربت إليهم دعوة القرامطة فهو يحاربهم كمناصرين لهذه الفتنة وداعين لها.

❖ حروبه مع الصليحي:

الصليحي هو أبو الحسن علي بن محمد الصليحي الحاشدي الهمداني، كان فقيهاً في مذهب الإمامية متضلعاً في العلوم وله نظر في علم التأويل. أعلن ثورته سنة ٤٢٩هـ في رأس مشار أعلى ذروة في جبال اليمن، وكان يدعو للمستنصر الخليفة العبيدي في مصر، وفي سنة ٤٥٣هـ كتب إلى المستنصر يستأذنه في إظهار الدعوة فأذن له، فطاف أرجاء اليمن يفتح الحصون والتهائم ولم تخرج سنة ٤٥٥هـ حتى كان ملكه قد عم اليمن بأسرها، وفي هذا العام استقر أمره في صنعاء وكان قتله على يد الأحول بن نجاح سنة ٤٧٣هـ.

وفي شعر أبي إسحق ما يدل على أنه وقف يحول دون تنفيذ مطامع الصليحي في حضرموت، وفي ذلك يقول مشيراً إلى الخليفة المستنصر العبيدي بمصر وهو ما يسميه بالمعز:

يخوفني أن المعِزَّ ملاذه بمصر وما خوفي لأهل المظالم
إذا وفده ولَّى إلى مصر رائداً مضى وفدنا قصداً لخير المعالم

ليعلم أي الحزب أسبق نصرة وأيهما أولى بفعل المكارم

وفي أثناء حروبه مع الصليحي عاد أبو إسحق يستنجد مرة أخرى بإمام عُمان حيث يقول من قصيدة وجهها إلى الخليل بن شاذان:

وانصر أخاك فإن الحرب قائمة والحق يطلب من أهليه أركانا
واعلم بأنك قد أثرت مأثرة فارفع لها شرفاً فالأمر قد هانا
إن الذي عمرت صنعاء دولته بالفسق أصبح من مولاي فزعانا
أضحت مخالفة أرض اليمان له لما رأتك لها حصناً ومعوانا
فاحفدهم فهم يدعون ربهم جهراً لتملكهم سراً وإعلانا
لكن لديك ضعيف كاشح وهن أبدى لكم ولنا في الناس أضغانا
والشحر لو نظرت خلقاً تحاربه أضحت عليه رجال الشحر أعوانا
اجعله أول ما يحيا البلاد به إنا نؤمل جيشاً منك يغشانا

وهنا ملاحظة لها أهميتها، فإن المعروف في التاريخ أن الخليل بن شاذان إمام عُمان الذي استنجد به أبو إسحق على الصليحي توفي سنة ٤٢٥هـ، وأن حركة الصليحي إنما بدأت في اليمن سنة ٤٢٩هـ يعني أنه يجب أن يكون الخليل على قيد الحياة إلى ما بعد هذا التاريخ ليصح استنجاد الهمداني به على الصليحي.

وقد رجعت إلى كتاب «تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان» لأبي محمد السالمي فوجدت المؤلف لا يقطع بأن وفاة الخليل كانت سنة ٤٢٥هـ بالضبط، وإنما كان يحكي ذلك على سبيل الترجيح فقط، ولذلك يبقى هناك أمل في حل هذا الإشكال بأن يقال مثلاً بأن ترجيح صاحب تحفة الأعيان يحتاج إلى إعادة نظر وأن من المحتمل أن يكون الخليل قد عاش إلى ما بعد ذلك التاريخ لينتفي التعارض الذي أشرنا إليه.

❖ تاريخه من شعره:

لأبي إسحق ديوان شعر مطبوع مرتبة قصائده على حروف المعجم، وله مقدمة بقلم العلامة الكبير الشيخ سليمان الباروني، وهذا الديوان هو المرجع الصحيح لتاريخ الرجل، ففيه يتحدث عن مبدأ أمره ومنتهاه وعما جرى له بين ذلك من أسفار وحروب وضعف وقوة وما يتصل بذلك كله من وصف للبلاد والناس والحوادث وغير ذلك.

فهو في هذه الأبيات يتحدث عن نسبه ووطنه ومذهبه وبعض صفاته:

فإن تسألا عني وعن أهل مذهبي ... ومن أين داري أنت يا أم حازم
فإني من همدان أصلي وقدوتي ... فمرداس والأوطان أرض الحضارم
أنا الرجل الداعي إلى الحق والذي ... أبت نفسه شتم الطغاة الأشائم
أنا الرجل الشاري الذي باع نفسه ... وأصبح يرجو الموت عند التصادم

وهو هنا يذكر بعض أسماء طائفته من كبار الإباضية الشراة أي الذين شروا أنفسهم لله كما يقولون:

إني من القوم القيام القوَّم ... الباهرين بالمقال المفحم
كابني بديل وابن حصن المعلم ... والراسبيّ الشارئ المعمّم
وابن حويل السيد المقدم ... وطالب الحق ابن يحيى الحضرمي
وابن حميد ذي الأناة الضيغم ... إنا لأهلُ الحق والتقدم

ويقول من قصيدة أخرى:

خُلِقتُ على خلق الرجال فلا أرى ... سوى الجدّ فيما جدّ فيه الأكايس
قريبٌ ورخّاف وسهم بن غالب ... أئمتنا والأربعون الفوارس

ويتحدث الرجل عن آماله وأمانيه في ثقة بنفسه واعتداد بمواهبه يثيران الإعجاب:

فعزائمي صعدت إلى طلب العلى ... ورمت بكل خدلّج ورداحِ

علق الفؤاد بأن أكون أنا الذي يحيي الهدى بقواضب ورماح
علق الفؤاد بأن أكون أنا الذي لحق الشرا ورمى غداة طماح
علق الفؤاد بأن أحاسب في غد ومن الدماء تدفق بجراح
فعلى السيوف يموت كل مكرم وعلى السيوف قياد كل فلاح
وعلى السيوف ينال من طلب العلا غرف الجنان وقصدهن كفاحي

ويتحسر على فقد العلماء - من طائفته - ويبكي لانصراف الناس عن التمسك بأهداب الدين، فيتخذ أسلوب الحوار للتعبير عن هذا المعنى في نفسه:

فقلتُ وما يبكيك يا خود لا بكت لك العين ما هبت رياح زعازع
فقالت بكيت الدين إذ رث حبله وللعلما لما حوتها البلاقع
فأين الألى إن خوطبوا عن دقائق من العلم أنبوا سائليهم وسارعوا
فقلت لها هم في شبام ومنهم بميفعة قوم حوتهم ميافع
وفي هينن منهم أناس ومنهم بذي أصبح حيث الرضى والصمادع
ومنهم بوادي حضرموت جماعة وأرض عمان سيلُهم ثَمَّ دافِعُ

ونجد في ديوانه له إشارات مجملة إلى حوادث ذات أهمية في حياته وفي تاريخ البلاد، ولكنا لا نجد مصدراً آخر لتفصيل هذه الحوادث وتوضيحها، فمن ذلك قوله:

إني دعوت إلى الرحمن في زمن فيه الهدى دارس مستطمس الأثر
فاشتد ساعده إذ قمت وارتفعت راياته وأضا في البدو والحضر
ثم اتّكت محن الدنيا عليّ ولم تَقدم لديَّ جنود الصبر والظفر
قام العصاة بثار الجور واحتفلوا بالله لا نُصِروا حقّاً مدى العُمُر
فاسترهبت لهم الأخيار وارتعدت بعد استنارتها زند الهوى ووري

لـكـن أراد تـعـالـى الله يـخـبـرنـا كالرسل والخلفا في سائر العصر

ويذكر صنيع بني سهل عنده حين أضافوا جماعته وآووه يوم خرب موطنه، ويستثير عزائمهم لنصرته فيقول:

فيا لبني سهل أضفتم جماعتي وآويتموني يوم خُرّب موطني
وصرت مليكاً فيكمو متمكناً كنيناً حصيناً مكرماً غير هيّن
سوى أنني يا قوم لم أقض حاجة لديكم ولا عاينتُ أمراً يسرّني
فإن تنصروني فالرجية منكم وإن تعجزوا قابلتُ أرضاً تُعِزُّني

ويقول في نفس المعنى من قصيدة أخرى:

فأما بنو سهل الكرام فإنها أجابت ندا الأعدا غداة انحدارها
وفرت عداة الحق سفّاه كندة وحمير لما أيقنت باقتهارها
فنالت به ذلاً فإن هي أنكرت فقد بان إذ عادت بوجه انكسارها
على أنها ترضي الرفيق بمنعها وتلقى المنايا السود من دون جارها
وها نحن في حاليهما إن رأي لنا وللدين حقاً أو لحفظ ذمارها
هي ائتلفتنا والحريم معاً إلى منازلها قصداً ورحب ديارها
وما فعلت هذاك إلا لعزّها ومنعتها أيضاً وحسن اعتبارها
ولست أراها تحرب الدهر جارها وتشمت أعداها بخلع عذارها
فإن خذلتنا وهي في حال عزها وضعف أعاديها وحال انتشارها
فلا ذلّ إلا ذلّ من حلّ نحوها ولا عار إلا مقصر دون عارها

ويذكر صاحب البضائع أن بني سهل من تجيب، وأن مساكنهم بالكسر، وأن من أكبر قراهم هينن، وكان صاحب الترجمة التجأ إليهم بنسائه فأكرموا مثواه.

وهكذا فإن ديوان أبي إسحق سجل حافل بتاريخ حياته، ولا ينقصه

سوى الشرح والإيضاح لبعض الحوادث حيث يضيق الشعر عادة بهذه المهمة ويتكفل بها النثر وحده، ومع ذلك فسنحاول أن نمضي في عرض تاريخ الرجل قدر الإمكان مستندين إلى شعره الذي ليس في أيدينا من تاريخه غيره.

❖ صلته بأئمة عُمان:

شعره في الديوان صريح في تعدد وفادته على عمان مستنصراً بأئمتها على مخالفيه ومنافسيه في حضرموت، كما هو صريح أيضاً في حصوله على معونة مالية حيناً وحربية حيناً آخر، وكان الخليل بن شاذان مصدر أهم هذه المساعدات، وقد أشاد بفضله في كثير من قصائد الديوان، فمن ذلك قوله:

هذا الخليل إمام المسلمين حكت ... أنوار سيرته في العدل نيرانا
يا أيها العلم العدل الذي كملت ... له الخصال مروآتٍ وإيمانا
إني أحبك والرحمن يعلمه ... حب احتساب إلى ذي الطول قربانا
إذ صرت مشتهراً بالفضل أنت ولي ... قلب يحب بدين الله من دانا
متى عبرت إليك البحر منتصراً ... أيام عدت بما أوليت جذلانا

وهو حين يطلب هذه المعونة لا ينسى أن يذكر بأنه إنما يطلبها لنصرة الدين ومحاربة أهل الضلال، وأنه لولا ما يشعر به من وجوب النهوض لحماية الدين لما بذل ماء وجهه في استنجاد أحد.

لقد جاءني من بعد أرضي وأوطاني ... رجاء لنصر الدين من نحو إخواني
وذكر إمام شاع في الناس ذكره ... وطاب الثنا فيه الخليل بن شاذان
فقطعت غيطاناً وجاوزت أبحراً ... إليهم أجرّ المجد من آل قحطان
وكم بلد خلّفت فيها مشايخاً ... غطارفة غراً يرجّون إتياني
وما إن أراني في الذي رمت عائداً ... ولا سامياً إلا إلى مطلب عاني
وكم كانت الأشياخ أشياخنا الألى ... إذا طلبوا نصرا أمدوا بأعوان

وبالله لولا الدين أصبح مدحراً لما كان بذل الوجه في الناس من شاني
ولكن بذلت الوجه في الناس أرتجي من الإخوة الغرّ النُّهى بسط سلطاني

ويصرح أبو إسحق بأنه لم يذهب لطلب النصرة من عمان إلا بعد أن فقد كل أمل في مساعدة مواطنيه من الحضارم:

أبا القاسم اسمع لا عدمتك قصتي لتعجب من أمري وأنت رشيدُ
طلبت بوادي حضرموت فلم أجد بها أحداً ينكي العدا ويكيد
فسرت عُماناً قلت علّي أجد بها شراة تسامى والمكان بعيد
فجادوا ببذل المال دون نفوسهم وعدت حميداً والإمام حميد
فلما رأى أهل الضلال شرارتي تزيد حياة والضلال يبيد
بدا لهمو أن ينكثوا فتسللُوا لواذاً وغال المسلمين خمود

وهكذا كانت النجدة العمانية هذه المرة مساعدة مالية فقط، ولكنه في قصائد أخرى يقول إنه عاد بالمال والبيض والقنا كما سبق في أحد الأبيات، وهو هنا يتوعد مخالفيه بجحفل ينزل بساحتهم فلا يستطيعون له مقاومة:

سيعلم دغار بن أحمد والفتى سلالة مهديّ وكل مخالف
إذا نزل المستنصرون بجحفل يهزّون بيضاً كالبروق الخواطف

وفي شعر أبي إسحق ذكر للإمام راشد بن سعيد الذي تولى إمامة عمان بعد وفاة الخليل بن شاذان:

أيا راشداً إنا لعمرك نزدهي بذكراكمو في حضرموت تعاظما
إذا ما عمانيٌّ أَلَمَّ بأرضنا أحطنا به نسأله عنكم تزاحما

ويزعم الباروني أن الهمداني كان عاملاً للإمامين الخليل وراشد في حضرموت وأعمالها ثم تقلّد أمر الإمامة بعد لك، وليس في شعره دلالة واضحة على ذلك سوى أنه يدعو الخليل بإمام المسلمين ويقول إن الخطباء

في حضرموت دعوا له جهرةً، وغير أنَّهُ وصف الإمام راشداً بأنه صار لهم قيماً - يعني الإباضية - يعتمد عليه عند الخُطوب وذلك حين يقول:

إباضية زهرٌ كرام أفاضل مناقبهم في كل سامي عُلاً تبْدو
وأنت لنا من بعدهم صرت قيماً حمولا لًثقل الخطب يُورى بك الزندُ

وهذان البيتان من قصيدة أرسلها الهمداني إلى الإمام راشد بن سعيد يعرض له فيها إرسال نجْدة إلى عمان من حضرموت لمساعدته في حروبه مع نهد وعقيل، قال فيها مشيرا إًلى نهد وعقيل:

فإن عَدَلُوا عن بغيهم وتراجعوا إلى عسكر الإسلام والحقّ وارتدوا
فأهلاً وسهلاً بالعشيرة إنهم إليكم بإخلاص لرب السما أدّوا
وإن هم أبوا فاستصرخونا فإننا قريبٌ وما للقوم من صحبهم بدُّ
وما بين وادي حضرموت وبينكم إذا سَرَّكم إتياننا نحوكم بعد
متى يأتنا منكم صريخ نؤمّكم بعسكر جرّار يضيق به النجدُ
كهولاً وشباناً صباحاً مساعراً ورادا إًلى الهيجا إذا استصْعب الوِرد

ويخاطب الإمام راشداً من قصيدة أخرى بقوله:

ونحن إذا ما الحرب جدّت إليكم أتتكم كراديسٌ تَهُزُّ الصوارما
يذودون عن أوطانهم كل معتد فَويل لمن في الحرب يلقى الحضارما

❖ أصحاب النفوذ في عهده:

يتحدث الهمداني في ديوانه عن جماعة من أصحاب النفوذ في حضرموت بعضهم يناصبه العداء والبعض الآخر صلته به حسنة، بل هو يمتَدح بعض أصحاب النفوذ هؤلاء ويتعاون معهم في أغراض حربية كما فعل مع أبي الفضْل عباس بن معين الكندي:

ففي الشرق قَد أضحى الهدى بعد ذلةٍ عزيزاً بملك راجح الحلم حازم

كريم حمي الأنف شهم غشمشم أخي نجدة صعب صليب الشكائم
أبي الفَضْل عباس بن معن بن حوشبٍ ذرى كندة العليا الملوك القماقم
أقمت سنينا قَبل ألقاه لاهياً أقاسي عداة الحق مرّ العلاقم
فلما التوت كفي بيمناه أخْمدتْ عساكره بالرغم نار المخاصم
ومدت بإذعان إليه رقابها جميع البرايا بين راضٍ وراغم

وهو يصف جيش عباس بن معن هذا بالكثرة والقوة فيقول:

قام ابن معن وابنُ مُعْنٍ جيشه ذو كلكل ضخم عظيم المبرك

ونحن لا نعرف عن هذا الملك الكندي أكثر مما ذكره أبو إسحق، فقد ضاع الكثير من أخبار هذا العهد لأسباب لا نعلمها بالضبط حتى الآن، كما لا نعرف شيئاً عن سويد بن يمين الذي أطنب الهمداني في مدحه وألح في طلب نصرته:

سويد الذي في المجد منه عرائس وفيه من المجد النفيس غرائس
سويد الذي لا تائه متغطرس ولا عاجز عما تروم العتارس
سويد الذي لم ينخدع لمنافق ولا ولجت في مسمعيه الوساوس
سويد الذي قد عاهد الله لم يزل عليه من الصدق الصريح قلانس
سويد الذي أيام كنت بدوعنٍ سقى السيف حتى مجدته المجالس
فكيف يغيب اليوم عني انتصاره وها أنذا في داره اليوم جالس
فيا ابن يمين زادك الله رفعة أيغشى الكرى عينيك والحق طامس
ذِمارُك محروس وحرمة ذي العلا مهتكة ترعى حماها الأناحس
أغثنا قبيل الموت إن نفوسنا لها في غدٍ أو بعدها الموت خالس

ويقول في سويد بن يمين أيضاً:

سويد علوت المجد نلت العلا علت أمورك نلت الفخر إذ قمت تكشف

بعزمك كرب المرملين وهكذا يجلي الهموم الأروع المتهفف

فمن هو سويد بن يمين؟ وعلى من كان يستنصره؟ وما هي حادثة دوعن التي أشار إليها في قصيدته؟ لا ندري.

❖ حياته الخاصة:

يحدثنا الشيخ سليمان الباروني عن حياة أبي إسحق الخاصة فيقول: كان شديد الحزم متجلداً صبوراً على مشاق السفر وزلازل الحروب وأهوال التغرب، وأقام مرة تسع سنين وشهراً لم يأت فيها أهله وهو سائح بجيوشه في بسط العدل وتوطيد الأمن للرعية.

وله مع والده مخاطبات وقصائد، وعُمّر زمناً طويلاً رزق فيه ذرية صالحة، وتوفي في حياته ولداه محمد وأبو الحسن بعد أن تنورا بأنوار العلوم وتهذبا بمحاسن الأخلاق والآداب وبلغا في المعرفة مبلغاً عظيماً، فعظم عليه فقدهما واستسلم للقدر رضاء بالقضاء المبرم، ورثاهما بقصائد بعضها في الديوان.

ولا يتعرض الباروني لتاريخ وفاته، ولكنه يقول: إن ظهور أمره كان في حياة والده بصدر الخمسين الثانية من المائة الخامسة، وهو يقصد بذلك استقلاله بالأمر بعد وفاة الإمامين الخليل وراشد، وقد أشار إلى ذلك أبو إسحق نفسه في قصيدته التي مطلعها:

بحول إلهي لا بحولي وقوتي وتوفيقه أظهرت بالسيف دعوتي

فقد قال بعد أن ساق عهده ووصيته للناس:

بتاريخ شوال وفي عام أربع وخمسين تقفو أربعاً من هنيدة

❖ ما قل ودل:

إن هذه المعلومات القليلة المبعثرة التي يطالعنا بها ديوان الهمداني لتدل دلالة مخيفة على مدى الفوضى والاضطراب اللذين حفل بهما في

تاريخ حضرموت في هذه العهود، ففضلاً عن الفتن الداخلية التي تعانيها البلاد كانت في نفس الوقت هدفاً لغزوات حكام اليمن والأقوياء من عمال بني أمية والعباس، ثم لمطامع ملوكها والمتغلبين عليها من آل زياد واليعافرة والقرامطة وبني زريع والصليحيين.

وربما كان لعقيدة الإباضية التي يعتنقها أغلبية من الحضارم في تلك العهود دخل كبير في هذه الثورات المتتابعة والفتن المتلاحقة، فالإباضية كغيرهم من الخوراج ينظرون إلى خلفاء بني العباس كنظرهم إلى خلفاء بني أمية، كلهم لا يصلح للخلافة إذ لم يختر اختياراً حراً صريحاً، ولم يستوف الشروط التي يجب توفرها في الإمام، ولذلك يجب الخروج عليهم ومقاتلتهم وعزلهم إن أمكن وقتلهم إن أمكن[1].

وقد استعمل حكام اليمن من الشدة في قمع هذه الثورات ما تقشعر من تصوره الأبدان، فقد سبق في ترجمة طالب الحق ذكر للأفعال الشنيعة التي فعلها جيش ابن عطية من النهب والتخريب وقتل الرجال والنساء والأطفال في آخر عهد بني أمية، ثم أتى معن بن زائدة والي المنصور العباسي على اليمن ما هو أشد وأفظع، فقد أثخن في القتل وبلغ عدد ضحاياها خمسة عشر ألفاً، حتى أعظم الناس ذلك وتحدثوا به في جميع الأمصار وقال رجل من قريش للخليفة المنصور: ألا ترى يا أمير المؤمنين إلى ما فعل معن بأهل حضرموت؟ لقد كاد أن يأتي عليهم، فرد عليه المنصور رداً يدل على رضائه عما صنع واليه في اليمن.

ويقول السيد علوي بن طاهر الحداد في كتابه «جني الشماريخ»: إن معن بن زائدة قضى على سطوة الإباضية في حضرموت، وما بقي منها دَمّرها ابن أبي يعفر، ويقصد به محمد بن أبي يعفر الحوال الذي كان متغلباً على اليمن في خلافة المعتمد العباس في النصف الثاني من القرن الثالث

(١) ضحى الإسلام لإحمد أمين.

الهجري، وقد كتب إليه الخليفة العباسي بولاية اليمن فوجه عماله على المخاليف وفتح حضرموت وكانت قد تمنعت على من قبله، وأقام الهزيلي الحضرمي في شبام نائباً عنه.

وأشعار أبي إسحق الهمداني تثبت أنه كان للإباضية سطوة ونفوذ في القرن الخامس الهجري أيضاً، بل سنرى في تراجم الشخصيات الآتية أن نفوذهم استمر إلى القرن السابع حيث أخذ في الضعف والتلاشي.

ومن المؤسف أن المصادر التي عثر عليها حتى الآن لم تتعرض بتفصيل لأخبار استيلاء الحكام اليمنيين على حضرموت من آل زياد واليعافرة والقرامطة وبني زريع والصليحيين وغيرهم، كما لم تُشِر إلا نادراً إلى زعماء الثوار ورؤسائهم من الإباضية الذين وقفوا في وجه الغزاة وحاربوا من أجل استقلالهم بالنفوذ داخل بلادهم، وحتى يتم العثور على المصادر التي تجلو الحقائق التاريخية وتتحدث بإسهاب عن نواحي الحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العهد فسيبقى تصورنا لتلك الحقبة التاريخية ناقصاً ومضطرباً لا يمكن الركون إليه.